اسماعيل صبري

بمناسبة مضى عشر سنوات على وفاته

يوم نستقبل الربيع نذكر الخمائل على ضفاف النيل وهى ترسل نسماتها البليلة الندية ، والطير جاثمة فوق غصونها تشدو بأغانيها الجميلة الشجية ، ومن خلال أشجارها تجرى جداول تدفقت فيها المياه العذبة الروية . . اليوم الذى تستجيب فيه العين والأذن للزهر وللطير وللماء ، لاننسى أنه اليوم الذى ذوت فيه زهرة أرجة ناضرة ، وانقطع صوت لين حنون ، وجف فى مجراه ماء عذب دفيق : ففى مثل هذا اليوم استوفى اسماعيل صبرى ظمء حياته

فهلا يجمل بنا اليوم ، يوم تمضى على وفاته عشر سنوات أن نذكره ولو بهذه الاجالة الموجزة ؟

لانريد أن نترجم حياة صبرى وإن كانت خطيرة ، فقد تدرج فى وظائف الحكومة حتى شارف ذروتها ، ذلك لأن هذه المناصب الرفيعة ، وإن أحلت صاحبها فى حياته مقاماً محموداً ، أهون على الناس من أن تبعثهم على أن يحفلوا بأمره بعد أن بت ماكان يصلهم به من أسباب الحياة ، هذا إلى أن مراد القول أضيق من أن يستفيض لترجمة شاملة وافية تتبين منها ماتركته أطوار حياته من آثار وندوب فى هذا الجانب الروحى الذى يمس النفس الانسانية فيصل بين أجزائها وإن اختلف ما يحفها من عهود وبيئات

استقبل صبرى حياته ، فى أوائل النصف الثانى من القرن الماضى ، وقد تجمعت عدة جهود أدبية وقامت فيما يشبه الثورة: فبعثت طائفة من معاجم اللغة وأسفار الأدب ودواوين الشعر من خزائنها وطبعت ، وأخذت الصحف الأدبية تنشأ وتعمل لتقويم اللغة وإحياء الأدب العربى ، وأعيدت البعوث إلى أوربا بعد أن وقف إرسالها أيام عباس وسعيد ، وأقيمت نظارة المعارف وعهد إليها بأمور التعليم وأنشئت دار الكتب ومدرسة المعلمين ، وظهرت مسارح التمثيل والموسيقى والغناء وغير هذا مما لم يكن إلا ناحية من نواحى الثورة الاجتماعية التى أقامها الخديو اسماعيل يوم رسم لمصر خطة الاتجاه إلى أوربا واقتباس حضارتها الجديدة

فى هذه البيئة التى يدب النشاط فى جنباتها فيبتعث الملكات الهامدة ، بدأ صبرى يقرأ الشعر ويحبه ، وأخذ ينعم النظر فيه ويحاول ان يقلده ، حتى استقامت له وهو فى السادسة عشرة بضعة قصائد فى مدح الخديو وتهنئته نشرتها له مجلة «روضة المدارس المصرية» التى أنشأها جماعة من صفوة الكتاب البارزين إذ ذاك . وكانت هذه الأشعار مجرد تقليد واضح فى أغراضها ومعانيها وأساليبها لمن سبقه من شعراء عصره كالبارودى وعبد الله فكرى ، وإن ظهرت عليها حيناً مسحة رقيقة من روحه وشخصيته .

ولكن هذه البيئة الأدبية النشيطة لم يقتصر أثرها على توجيه صبرى إلى الأدب وإذكاء ميله إلى الشعر ، بل حببت اليه قراءة الشعر العربى القديم من ناحية ، وحثته على قراءة الأدب الفرنسى منذ أرسل إلى فرنسا ليدرس الحقوق فى جامعة إكس من ناحية أخرى . فقرأ الشعر العربى وتذوقه وأحب منه بوجه خاص شعر البحترى ، ذلك ان صبرى ، كما وصفه الدكتور هيكل ، (ابن بلد) والبحترى ، كما قال حافظ ابراهيم « يأخذ قارىء شعره بالحضن » وقرأ الأدب الفرنسى وصادف فيه جمالا يرضى عاطفته ، وسيولة تروى شعوره . وبهذا تأثر شعر صبرى ببعض مميزات الشعر العربى حينا ، وببعض مميزات الشعر الفرنسى حينا ، وببعض مميزاتهما معاً حيناً . ولكن مامدى هذا التأثير فى أطواره الادبية ، وماهى مظاهره فى نتاجه الشعرى ؟ هذا سؤال يتناول ناحية خطيرة فى دراسة الشاعر ، وأنا لا أملك الآن مايؤهلنى لبحثها فى دقة وتحقيق . ولكنى أرانى ملزماً بأن أعرض لها ولو فى هذه الصورة التى أعرف أنها ليست دقيقة كل الدقة ، وليست شاملة كل الشمول .

الدين العينى (العينتابى) . وقد امتدت آثار هذه الخصومة الادبية طوال القرن التاسع الهجرى حتى جاء السخاوى فى اواخر هذا القرن يردد كل ما ذكره ونقله شيخه ابن حجر فى ذم ابن خلدون وتجريحه والانتقاص من اثره ، ولكن فى لهجة مرة لاذعة تنم عن الخبث ، وقصد التشهير والهدم اكثر مما تنم عن قصد النقد الصحيح وهذه الروح المرة اللاذعة تبدو فى معجمه (الضوء اللامع) فى معظم تراجم الشخصيات البارزة . بيدانه يعترف فى كتاب آخر له « بنفاسة » مقدمة ابن خلدون ويبدو أكثر اعتدالا وتقديرا (١)

للبحث بقية

١) كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ـ (مصر) ص ١٥١

حين نقرأ هذه الاشعار القليلة التى خلفها صبرى نرى أنفسنا أمام طائفتين متمايزتين من الشعر ، تشتركان فى صفاء الديباجة ورواء الاسلوب بوجه عام ، وتختلفان فى الشعور الذى صدرتا عنه ، وفى العاطفة التى أوحت بهما ، وفى المعانى التى تدوران عليها . وقد يضعف هذا الاختلاف حيناً وقد يشتد حينا آخر اشتداداً يحملنا على أن نزعم اننا لانقرأ شاعراً واحداً وإنما نقرأ شاعرين مختلفين . وليس فى هذا مايدهشنا ، فصبرى قد عاش مايقارب سبعين عاما ، مرت عليه اثناءها عهود الشباب والرجولة والكهولة ، حاملة آراءها وأفكارها ، وخواطرها وخلجاتها ، وآلامها ولذاتها ، وتنقلت حياته أثناءها بين هذه الآراء المتضاربة التى يمتلىء بها العقل تبعاً لما يتغذى به من ألوان الثقافة المختلفة ، وبين هذه الاحساسات المتباينة التى يجيش بها القلب تبعاً لما يعرض له من مناسبات وملابسات .

فأما الطائفة الاولى من شعره فهى التى أنشأها بين العشرين والاربعين وأكثرها قصائد فى مدح أو تهنئة اسماعيل وتوفيق وعباس ، وفى هذه الاشعار نرى أثر الشعر العربى ظاهراً واضحاً ، ونرى أثر البحترى وحده ، على وجه الدقة ، عميقاً بارزا ، إلى حد يبيح لك أن تشرك شعريهما فى مميزات واحدة . خذ مثلا قصيدته فى تهنئة الخديو بحلول شهر رمضان ومطلعها :

بعلاك يختال الزمان تبختراً * وبقدرك الأسمى يتيه تكبراً

وقارنها بكثير من مدائح البحترى تجد أن صبرى قد تأثر فيها بالبحترى تأثراً هو أشد من تقليد شاعر لشاعر ، وهو أقرب إلى حلول روح شاعر فى جسم شاعر آخر . ولكن ، وعلى رغم هذا كله ، فان هذا الاثر تناول الديباجة وحدها فأكسبها جزالة وسهولة فى مفرداتها وتراكيبها ، من غير أن يمتد إلى المعانى فينتج منها شيئا جديداً قيما ، وذلك لأن البحترى ، وهو الوشيجة التى تصل صبرى بالادب العربى ، قل أن نظفر فى شعره بكثير من المعانى المبتكرة ، وقل أن نحب فيه غير متانة الأسلوب وسلاسته . تأثر فى هذا الطور الادبى ، بين العشرين والاربعين بالشعر العربى وحده ، فأين كان الشعر الفرنسى ؟ أليس من الشذوذ أن نرى صبرى قد ذهب إلى فرنسا قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، وبدأ إذ ذاك يقرأ الآداب الفرنسية ويتذوقها ويشدوها ثم لانكاد نظفر فى شعره اثناء هذا العهد بأثر قوى لهذا الشعر الفرنسى بل ولا لأى مظهر من مظاهر الحياة الاوربية ؟ ولكن يظهر أن صبرى قد أوتى ، إلى جانب حواسه المرهفة ، ذاكرة قوية مكنته من أن يختزن فيها مايعرض له حتى يتمثله فى تؤدة وأناة وحتى ينتجه مكتمل النمو مستوفى النضوج .

ونحن لانفترض هذه الموهبة ولانتكلف التماسها ، وانما يحملنا على الاطمئنان اليها أننا نجد فيها تعليلا لهذا الاضطراب الذى يغشى أطوار حياته الادبية . فقد قضى صبرى شبابه وشعره يكاد يقتصر على المدح وما إلى المدح مما تنفر منه نفس الشباب ، ولاتكاد تبين فيه أثارة من هذه العواطف التى يحفل بها الصدر فى ربيع الحياة ، بينما تفتحت شاعريته الجائشة وأخذ يتغنى بأناشيد الحب والهوى اثناء الكهولة التى تنطفىء فيها عواطف الشباب الفياضة . ذلك لان ذاكرته القوية قد استطاعت أن تحتفظ بهذه الاحساسات الفتية التى اختلفت عليها اثناء شبيبته ، حتى تفجرت بعد ذلك شعراً ثميراً لاتشوبه فجاجة الحس ولاغضاضة العاطفة .

ولهذا ظهر أثر الشعر الفرنسى فى هذه الاشعار التى تغنى فيها بالعاطفة الانسانية التى يسمونها الحب أو العطف أو الوداد وناجى فيها الله وتخوف وتشوف الى الممات ، وشاد بمجد وطنه واستنهض أبناءه الى استعادة الماضى المجيد . فى هذه القصائد والمقطوعات ، التى كتبت اسمه فى ثبت الخالدين ، ظهر أثر الشعر الفرنسى بارزاً شاملا : بارزاً حتى يكاد يخفى وراءه كل أثر للشعر العربى ، شاملا فلا يقتصر على الديباجة وحدها ، ولا على المعانى وحدها ، وانما ينال الأسلوب فيضفى عليه جمالا ورواء ، ويتعداه الى الفكرة فيمزجها بروح غربية لم يألفها الشعر العربى من قبل .

وهل ترى فى الشعر العربى مثالا لهذه القطع التى أنشدها فى الحب ؟ كلا ! فالشاعر العربى الغزل لايرى فى المرأة إلا (أنثى) جميلة الوجه دقيقة القسمات ، مهفهفة القوام رشيقة الأعطاف ، رخيمة الصوت شيقة الحديث ، يهصر صدرها ناهضا ويشبع ثغرها تقبيلا ، وهى تتهافت وجداً وتتهالك هياما ! والغزل فى الشعر العربى يضيق عن أن يستفيض لجميع وجوه الجمال الانسانى ، وينصب على ناحية الجمال الجسمى وحده ، فيصفه جملة أو تفصيلا ، سواء كان الغزل عذريا أو إباحياً أو متكلفاً . أما شعر صبرى فى الحب فيختلف عن هذا الغزل العربى فى صلته بالمرأة ، إذ يتسامى عن الجمال المادى إلى الجمال المعنوى فى أرحب آفاقه وأشمل معانيه . فلا تستخفنا فيه هذه العيون والخدود ، والصدور والنهود ، والملاسة والرشاقة ، والتقبيل والضم والتأود والتثنى ، والتأوه والأنين وانما نهتف فيه بالمثل الأعلى للمرأة فى أفتن جمالها ، وأذكى فؤادها ، وأنبل روحها .

وإنى لأشعر حين أقرأ قصيدته (تمثال جمال) أنى أنظر إلى صورة فنية رائعة ، فلا أميز بين هذه المرأة التى يهتف بها الشاعر ، وبين هذه المرأة التى يتخذها المصور رمزاً لمعنى من المعانى الانسانية كالألم أو الأمل أو الحنان ! بل انى لأحس حين أرتلها أن قلبى قد صفا مما به من شره وأنانية وغرور وكبرياء ، وأن صدرى قد انطفأت فيه جذوات الحقد والحسد والغيرة والطماح ، وأن فؤادى قد غمر الخشوع والايمان ما يغشاه من شك وضلال ، أشعر أنى قد سموت من الارض إلى السماء !

ولم لا وصبرى قد امتزجت فيه الروحية بالجمال ؟ ألم ينشأ على ضفاف هذا النيل الذى أوحى إلى الانسانية أن تبتكر ديناً وإيماناً ، ألم يلابس الحياة الاوربية وما تضفيه من فتنة وجمال؟ وبهذا استجاب للروحية المصرية وتمثل الجمال الاوربى ، وبهذا اجتمعت فيه عبقرية روحيتها وأوربا بجمالها ، وبهذا كان نتاجه الشعرى مزاجاً من الروحية فى معانيه ومن الجمال فى أساليبه .

وشعره فى الحب ، بعد هذا ، سمح وديع رضى : لا يفطر القلب أسى ، ولا يرسل من العين دمعاً ، ولا يبعث من الصدر أنيناً ، ولكنه لا يشيع فى المرء غبطة بالحياة ورغبة فى متاعها ولا يغرى بالاسراف والتوفر على لذاتها ، وإنما يجمع فى شعره لوعة غير مسرفة ، ومتعة غير غالية ، ذلك لأن صبرى لم يكن لاهياً ولا عابثاً ولم يكن كئيباً ولا محزوناً ، وإنما كان سمح الذوق ، وديع الخلق ، رضى النفس ، فما كان يذعن قلبه لامرأة واحدة تأسره وتطغى عليه ، وما كان ماجناً فى حبه سادراً ، ولا متهتكا فى لهوه مستهتراً ، وانما كان ينشد المرأة التى تشبع القلب ولا تتخمه ، وتروى الفؤاد ولا تغرقه ، وترضى الشعور ولا تقسو عليه .

وهذه الدعة التى تميز بها فى حبه ، تشيع كذلك فى شعره فى مناجاة الله ، وازدراء الدنيا ، واستشفاف ما فى الحياة الأخرى . فهو لم يكن ناسكا فى الدنيا زاهداً فى لذاتها ، ولم يكن مفتوناً بالحياة متوفرا على متاعها ، وإنما كان ينال من هذا فى قصد ويأخذ من ذلك فى اعتدال ، فاذا اسرف فى حبه للحياة واستمتاعه بلذاتها الرخيصة ، ذكر الدنيا وما فيها من نكر وخداع وضلال ، وذكر ما بعدها من حساب وعقاب وثواب ، فاستعجل الموت وراحة القبر حيناً ، وناجى الله وأمل فيه حينا .

ولكن صبرى الوادع الهادىء كان إذا تحدث عن وطنه جاشت الحماسة فى أنحاء صدره ، وفاضت الحرارة فى سياق شعره ، فمثلت الوطن بجلاله وروعته ، وأشعرت المصرى بمجده وكرامته ، وأذكت نار الوطنية فى فؤاده . وألهبت فيه عاطفة التضحية فى سبيل بلاده

وهو فى شعره يستلهم العاطفة ويستوحيها . كانت تختلف عليه غير السياسة وأحداثها فلا يخل بها ، وتتوالى أمامه الكوارث والخطوب فلا يأبه لها ، وتتراكب فى عينيه شؤون الحياة وأمورها ، وتزدحم بخيراتها وشرورها ، وتغص بلذاتها ومنغصاتها ، فلا تسترعى منه حاسة ولا تستثير فى نفسه عاطفة ، بينما يجيش وجدانه وتهتز عواطفه عند موت طفل ، أو فراق صديق ، أو قراءة كتاب ، أو وقفة عند سفح الأهرام ؟ هذه الحوادث التى تمر بنا فلا نلتفت إليها كانت تثير شاعرية صبرى بهذه المقطوعات التى تمس النفس الانسانية فى أعمق حواسها وأدق مشاعرها . وهذه هى مهمة الفن : يفتح العين المغمضة ، ويذكى الحاسة المطفأة ، ويبعث العاطفة الهامدة ، ويحيى موات القلوب ، حتى يشركنا بحظ ممافاتنا من اللذات السامية التى قصرت على النفوس الموهوبة . وهل نرى بهجة الحياة إلا بعين المصور ، وهل نستمع إلى أنغامها إلا بأذن الموسيقى ، وهل نحس الحق والجمال إلا بقلب الشاعر ؟ وأى شعر أرفع من شعر صبرى الذى (فاضت به) العاطفة من غير أن تتكلفه أو تكره عليه؟ وأى شعر أنضج من شعر صبرى الذى كان يؤمن بشيطانه ولا يعصى له أمراً ، فيستوحيه الشعر ولا يستجديه ؟ وأى شعر أسمى من شعر صبرى الذى تشيع فيه هذه المرارة وهذا الحنين ، فيذيب فى الصدر أطماع الحياة وآثامها ، ويسمو بالنفس عن متعها الخسيسة الهينة ، إلى المستوى الانسانى حيث يستحيل البغض حباً ، والقسوة حناناً ، والأثرة إيثارا ، والتناحر وداداً ، والصراع عناقاً . . .

إلى جانب هذا النضوج فى روح صبرى ، نذوق جمالا فى أسلوبه يملك على المرء نفسه حين يتلوه ، ويحمله على أن يرتله مرة بعد مرة وعلى أن يذكره آونة بعد آونة ، فلا يزداد الشعر إلا عذوبة وصفاء تزيد المرء لذة ومتاعاً ، ويخيل إلى المرء أنه أمام وجه جميل ، كلما أطال النظر اليه ، ازداد رغبة فيه وحبا له . وهكذا يقاس نضوج الفن : يزداد المرء بالصورة اعجابا كلما أنعم النظر فيها ، ويزداد حنيناً الى الموسيقى كلما أطال الاستماع اليها ، ويزداد فتنة بالشعر كلما أكثر ترديده وترتيله . وكيف لا يكون شعر صبرى جميلا وقد استقاه من ينابيع فياضة بالجمال : تأثر بشعر البحترى الذى امتزجت فيه الجزالة بالسهولة ، وتأثر بالشعر